أبو خليل القبـــانى

باعث نهضتنـا الفنية

وهجرته إلى الديار المصرية

للأستاذ حسنى كنعان

— ٤ —

خضع الوالى « فاضل باشا » لإرادة عبد الحميد جبار بنى عثمان وأغلق مسرح القبانى ومنعه عن العمل على كره منه ، ولو توانى وقتئذ فى تنفيذ الإرادة السنية ، لكان طعمة للأسماك فى بحر مرمرة مقبرة الأحرار السلبيين ... ففرح خصومه الذين كان على أيديهم هذا الصغر ، وجزع عليه عشاقه وعارفو فضله وهم الأغلبية الساحقة فى البلاد ، ولكنها إرادة الجبار المجتثة من إرادة الله . فلم يجرؤ أحد على ردها . وما كان علماء دمشق جميعهم راضين عن إقفال هذا المسرح ، لأنهم كانوا يرونه مهذباً للأخلاق معواناً على الوعظ والارشاد ، وبث الأخلاق الفاضلة وتجنب الرذيلة ، حتى أن شيوخ القبانى الذين كانوا ينكرون عليه هذه النزعة فى مطلع حياته أضراب المفتى الشيخ محمود حمزة ذى النزعة الصوفية ، والشيخ واعظ السجدة وكبار العلماء المنقضين ، كانوا لا يتورعون عن حضور مجالسه ومشاهدة رواياته الأخلاقية والتاريخية والاجتماعية المأخوذة من صور حياة البيئة التى ولد فيها ودرج فى أفيائها ، لأنهم ما كانوا ليروا فيها من الأمور المحرمة ما يخالف عاداتهم . أما الذين كانوا يناوئونه من أرباب العمائم الذين اتخذوا من هذه « الحرفة » التى تستر رءوسهم الفارغة وسيلة للتخلص من الخدمة العسكرية فى ذلك العهد ... وهم ليسوا على شئ من العلم ، ولقد لاق القبانى من جور هذه الفئة وعنوها وفتنتها وشغبها ما زهّده فى الحياة وجعله يقيم فى منزله معتزلا الناس لا يرى أحداً ولا يراه أحد ...

ولقد طال اعتزاله الناس والبعد عنهم حتى كادوا ينسونه ، وإذا ما فكر مفكر منهم فيه خاف جفوة السلطان وغضبه ... وكان هؤلاء الخصوم المرتزقون المتكسبون الذين طالما غادوا من أعطيات صاحبهم ومنحه ومبراته يغتنمون فرصة جور سلطانه وكلب زمانه فيركبونه بالشغب والازعاج كلما أبصروه على سبيل المصادفة فى طريقهم حتى أنهم كانوا يتبعونه الصبية الأجورين لهذه الغاية فيترصدون خطاه ، ويسمعونه من المدائح « والقريديات »[1] والأهازيج الموضوعة من أجل إغاظته وإزعاجه ما يندى له جبين الفضيلة والأخلاق كقولهم له :

أبو خليـل النشـوانى يا مزيف البنـــات
إرجع لكارك أحسن لك إرجع لكارك نشوانى
أبو خليل مين قال لك على الكوميدى مين دلك
إرجع لكارك أحسن لك إرجع لكارك قبانى
أبو خليـل القبـــانى يا مرقص الصبيـــانى
إرجع لكارك أحسن لك أبو خليـل القبـــانى

وكانت هذه الأهازيج تقض مضجعه ومضجع مريديه ، ولكن من ذا الذى يعارض ويدافع عنه وهو مجفو من السلطان والناس فى مثل هذه الساعات يظهرون معاداتهم لمثل من يكون هذا شأنه معهم ؟

وكان القبانى كثيراً ما يبقى شارد النوم موزع الفكر والب من جراء ما يلقاه إلى أن أخذ يفكر فى الخروج من هذا المحيط الضيق الذى ضيقوا عليه فيه واسعاً . وفى ليلة من ليالى الشتاء العابس نبا به مضجعه وند النوم عن مقلتيه لشدة ما عراه من الفكر والهواجس ؛ وما أكثر الليالى الطوال التى كان يشرد فيها النوم عن عينيه ! وكان قد رنق النوم أجفانه فى الفجر فهب بعد ساعتين من هجعته على أثر سماع هاتف خيل إليه أنه يهيب به قائلا : أيها الراقد المتناوم الورق هب من ضجعتك واطرد عنك الهم والحزن ، فإن مستقبلا لامعاً يمد لك وهو ينتظرك فى غير هذى البقعة الضيقة ... قم وابحث عن غير هذه المواطن التى تدفن فيها المبقريات : ...

إذا ضاق صدرك من بلاد ترحل طالباً أرضاً سواها
فإنك واجد أرضاً بأرض ونفسك لم تجد نفساً سواها

خف على أثر سماعه صوت الهاتف وجعل يخطر فى غرفته ذهاباً وإياباً ويصيخ بكل سمعه : وجدتها وجدتها ...

(١) القريديات : من الشعر العامى

فصاحت به ربة الدار حانقة غاضبة ومن هي التي وجدتها يا رجل ... ؟ كفاك كفاك هراء ، لقد أمرضتني والله وأزفت عقلي بهذه الموجات الجنونية التي تواتيك الفينة بعد الفينة لا نوم ولا راحة ولا استكانة ولا شغل لك إلا بهذه الهواجس والفكر . إن الذي ألقاه منك وبلقاه بنوك الصغار قد يضيق الصدر منه ، ويعز الصبر عليه ، لا عمل لك ولا شغل إلا هذه المهاترات . ارجع إلى صناعتك الأولى وأرحنا من هذا العناء وخلصنا من شبح الكوبة ، قل لي : بالله ما الذي جنيته من الأموال وما الذي اكتنزته من وراء هذه الصناعة صناعة التمثيل؟ إنك والله ما جنيت منها سوى التعب ومعاداة الناس وجور السلطان ، وعار الأبد . إنك منذ مزاولتك هذه الصناعة قد ألبستني ثوب العار ، كما جلبت لنفسك ولعطك مذلة الأبد بهذه « الضربويات » التي تسمعها والتي درجت على ألسن الناس مدرج الأمثال . وهل إنسان في الكون يطيق سماع عبارات كالتي توجه إليك ، وفيها التحقير والتشهير ، وأنت إلى هذا لا تستطيع أنت وصحبك أن تصنعوا شيئا ، أرأيت أن عبارة :

أبو خليـــل يا يومـــه يا بو اللفـــه الروى
اعطيني من ذقنك شعره . لأصـــلح ها لبيتوني (١)

لو وجه مثلها إلى أحقر إنسان في العالم أكان يصبر عليها ويرضى هذا الذل .؟

وهنا استشاط القباني من الغضب والحنق وصاح بها مجيباً :

على رسلك يا امرأة ، وما تضيرني هذه الأهازيج والأقوال ، ولو كانت هذه العبارات تضر إنساناً أو تحول دون وصوله إلى غايته وبلوغ أمنيته ، لأضرت بالعظماء وبالنبيين قبلي ، لأنهم كانوا يلاقون من عنت الناس وجورهم ما لا يقاس ما لقيته بشيء تجاه ما لقوه ، ومع هذا فقد مضوا في عملهم . صابرين مستكينين إلى أن أدوا رسالاتهم تامة غير منقوصة ، وجنوا ثمار جهودهم بأن خلدوا لهم ولأممهم أحسن الذكر . فكوني متفائلة يا امرأة . والذي آمله منك التشجيع ، وليس كالمرأة الصالحة سلوان للرجل . فاستحيت هنا « أم خليل » ولامت نفسها قائلة « وأنا مالي أم علي تندب على » وهنا نهض القباني المؤرق المتعب المكدود الذهن من فراشه وهو يردد قوله وجدتها والله وجدتها وجدتها ... ثم أمسك بيده قلماً وورقة وكتب بها رسالة إلى صديق له في الاسكندرية يدعى « سعد الله بك حلابو » وهو حموي الأصل ومن أكبر تجار هذه المدينة الساحلية العظيمة ، وله مراكب تجارية تمخر عباب البحر وتنقل البضائع الصادرة والواردة إلى المدن والقرى الساحلية .

يستطلع رأيه في الرسالة بالشخوص إلى الاسكندرية . ولما اطلع حلابو على الرسالة وفهم فحواها طار فرحاً ، وجعل يمر بها على أصدقائه ويزف لهم بشرى شخوص هذا النابغ إلى الديار المصرية ، وكانت شهرته قد بلغت مسامع الكثيرين من المصريين . ولم تكن فرحة صديقه بالتي تذكر أمام فرحة هؤلاء المشتاقين من هواة الفن الذين يرغبون في اجتلاء طلعة هذا النابغ الذي طبقت شهرته الآفاق . وفي الحال أجابه صديقه التاجر الحمصي يزف له المجيء إلى الاسكندرية ، وأفهمه أن القطر المصري في انتظار قدومه وفي انتظار الحظوة بمشاهدة روائع فنه . وكان على أهبة السفر ساعة أتاه الجواب بلزوم الهجرة إلى القطر العزيز « بوتقة » العبقريين ، إذ ما من فنان أو مشرد طريد من بلاده مضطهد أمها إلا لاقى في هذا القطر أهلا يحتضنونه ويحدبون عليه ، وأنا أعرف كثيراً من الفنانين الطريدين الذين أنكرهم بلادهم قد بسم لهم دهرهم على جنبات هذا الوادي الخصيب وكانوا من ألمع الشخصيات في فنهم ...

لم يأخذ القباني معه أسرته ولم يأخذ معه جوقته إلى الديار المصرية يوم زح إليها مهاجراً مشرداً طريداً كما ترى ... بل ذهب بمفرده ، وكان سرور القوم به عظيما جداً ، وما استقر قدمه في الاسكندرية حتى خف إليه عشاق فنه من كل صوب ، وبلغ من شهرته أن فدت الوفود المهنئة تفد عليه من القاهرة ، وكان مغتبطاً مسروراً بما لقي من ضروب الكرم وحسن الوفادة

وأخيراً حبب إليه عشاق الفن أن يؤم القاهرة ويفتتح بها مسرحاً . وهناك أقاموا له مسرحاً في الأزبكية ، فاستقدم على الفور كبار رجالات جوقته من دمشق وأخذ يزاول العمل بهمة

(١) البيتون بالقفة الشامية هو الحناء